وردة لقبر نايفة

وردة على قبر نايفة ، هي تحب ذلك . ولم تتخيل موتها الا مشهدا لقبر عليه ورد . رومنطيقية . حتى انها قبل ان يخطف ابنها علي ، وكانت في الخامسة والثلاثين ، كانت تحكي وتمشي وتضحك كانها في اجازة بين رحلتين . تضع الكنزة على كتفيها وتعقدها عند الرقبة . قلت ان ذلك يعطي نايفة شعورا بان الكلام خفيف . وان الحياة خفيفة . تلاميذ مدارس ، كانت تحسبنا نايفة ، نحن الذين في مثل عمرها ، وتروح تحكي معنا لغة النزهات والرحلات .

بعد ان خطفوا علي بسنة قلت لها خلص يا نايفة . كان وجهها مسمراً وقد انتشر الكلف فيه . خلص يا نايفة ، توكلي على الله ، مالت على الطاولة التي تقعد خلفها انتصار وقالت ان قلبها يحترق ، حكيتها بكلامها القديم : يا نايفة ظبطي حالك شوي حتى تقطعي الطريق عليهن . ضحكت لكن ظلت ساكتة انتصار ويداها مشغولتان بالسنترال والتلفونات .

قلت لمحمد فرحات : ولك كيف عمفيها تتحمل ، فقام محمد من مطرحه خلف الطاولة . يفعل ذلك كلما رغب في الكلام الطويل ، والله مش هيني . ولما نبدا بالكلام عنها نتذكر ابنها في مشهد واحد . ينتظر الاسانسير في الطابق الارضي وهو يرفع راسه كثيرا كي يرى الارقام التي تطفيء وتضيء في الاعلى .

رومنطيقية الى درجة انني اظن انها زينت موتها قبل الدخول فيه . حسبت كيف سنلتقي في الجريدة بوجوه عابسة ولا نفكر الا فيها النهار بطوله . احبت ان تذهب الى بيتها معزين حزينين ،وافتتنت بتخيل الدمعةالرقيقة التي في عيوننا جميعا . ونايفة رومنطيقية . تحسب ان الموت يشبه حزن المحبين . انيس وصامت هو ، وهادىء ، كما لو انه لايحصل الا محاطا بحب القريبين .

قالت لي قبل ان خطفوا علي لماذا لاننشر الكلمة التي كتبتها . اقرايها بصوتك يا نايفة . نايفة ، التي في الخامسة والثلاثين ملات كلمتها بمشاعر السابعة عشرة . ورودا وحنانا وضمائر وغيوما وسحبا . وفي نهايات الفقرات كلمات تشبه التحيات التي تذيّل بها الرسائل . تحب الكتابة . ولم تكف عنها حين خطفوا ابنها فراحت ترميهم بالكلمةتلو الاخرى . ظنت انها تفحمهم في ذلك . تقول : ردوا الّي ولدي علي . وتستفيض في وصف حزنها في الليل والنهار . ظنت انها تحرجهم بمشاعرها الصافية . قلت لها ، مش هيك بيكتبوا يا نايفة . لحتى تنشر الكلمي لازم تعبّري عن حالك مش عن الطبيعة .

في كلماتها بعد خطف علي قالت انها تعبر عن نفسها هذه المرة . لم اقل لها : ولا هكذا يا نايفة . لم يقل لها احد ان للكلام مقادير لاتعرفها . لم يقولوا لها هزّيهم بالكلام يا نايفة . وليس بعاطفتك الصادقة . اخترعي لهم كلاما اقوى منك ومن ابنك علي ومن وجعك الذي لايجدون فيه شيئاً خصوصياً .

تحب الكتابة . واستمر معها ذلك حتى قبل ان تتناول قنينة الديمول من على الطاولة امامها . قلم وورقة في ناحية ، والقنينة في ناحية اخرى قريبة . هذا لا يفعله الا المتيمون بالكتابة ، الا عشاق الفن الاوائل . تكتب رسائل وليس ادبا . للولد المفقود او الفقيد ، للاب والام ، للشقيق والشقيقة . رسائل نايفة ، ادبها ووصاياها التي ستنشر في الجريدة والتي سيكون لها قراء كثيرون .

رومنطيقية ونفسك صغيرة يا نايفة . على قد جسمك الصغيرالذي كان يمشي بين انتصار وابنتها في الطريق المقفلة التي بين الجريدة والطريق . جسم صغير ، كان يساعدها في ان تبدو مثل ساكنات « الفواييه» التي اقامت فيها مع ابنها .

نايفة وابنها في الفواييه . تحبينه غراما يا نايفة . وحين كبر فجاة في السنة التي سبقت اختطافه كان مثل رجل صغير . صغير الجسم في الثالثة عشرة ولكن في وجهه نظرة من فقد اباه . كتوم ومرتب ونظيف ، ويمشط شعره دائما . هكذا قبل ان خطفوه . بعد ذلك صرنا لانعرفه الا منقصفا مشتعلا بنار امه . جسداً طريا صار ، جسدا معذبا مقهورا ، وصار اجمل ، جسداً يغوي بعذاباته وعريه .

هكذا اجسادهم جميعا حين يقع عليها الحديد . ينغرز فيها او يقع على جلدها قاسيا . لابن نايفة جسد مخطوف ولها روح ميتة . نايفة هي روحها . ربما كانت قالت « ترفرف » لو كتبت ثانية : يا نايفة ليس هكذا يكتبون وقد تقول لكنني اراها ترفرف يا حسن ! تشاهد ارواحا ترفرف وقلوبا يقطر منها الدمع ومنتحرات يخطرن في ثياب الاعراس . قلب نايفة وراسها بئران للصور الرومنطيقية التي تجمع الشيء وضده : لكثرة ما اعجبتك الافلام ترين ذلك . وكانت تضحك لذلك قبل ان يخطفوه .

في « الشهور التسعة » بين اختطافه وموتها اضعت توازنها بين حزنها الكبير وعملها الصغير . قلنا كيف تتذكر ورقة العمل التي وضعتها ديانا على طاولتها ؟ كيف تتذكر ارقاما او كيف تشك دبابيس في اوراق ترتبها في الجوارير . حزن كبير لعمل صغير . كانها طاقة كبيرة تنشغل بتأمل نملة . افعلي شيئا كبيرا يا نايفة كي لايقع وجعك كله بين الدبوس والورقة . لاتعرف وهل هي رجل لتخطف ؟

موتك مثلك يا نايفة ، رومنطيقي ، موتي لاجلك ذلك . ونحن الذين لم نكن نحزر كيف يتحمل جسمك الصغير كل غياب « علي » كنا نغيّر الحديث.موتك لاجلك احسن لجسمك ولروحك . احسن من ان تموتي امام عينيك كل يوم ، ومن ان تشاهدي باسنانهم الحديد واظافرهم الحديد يتحركون في كل الاتجاهات . يملاون المكان الذي يتحركون فيه . يجرحون بحديدهم جسمك الطري ، ويمزقون باسنانهم واظافرهم اجساما اخرى قريبة .

حسن داوود